مفهوم الأُمَّة وأوصافها في القرآن الكريم

توفيق البدري*

الملخص

يهدف البحث إلى بيان مفهوم الأُمَّة عامَّةً، واستكناه حقيقة الأُمَّة الوارثة للملَّة الإبراهيمية خاصَّةً في القرآن الكريم، مع الإشارة إلى دلالة هذا المفهوم الأصلية في اللسان العربي، وما اكتسبه في الاستعمال القرآني. وقد تَبيَّن بعد استقراء اللفظ المدروس أنَّه مصطلح قرآني مُركَّب من حقائق ومقوِّمات، وأنَّه لا يُمكِن إدراك ماهيته في كلِّيتها إلا باستحضار العناصر التي تُشكِّل أركانه. وبهذا الاعتبار، فإنَّ أُمَّة الإسلام تشمل أتباع النبي الخاتم ﷺ الذين أسلموا وجوههم لله رب العالمين، فاستحقوا أنْ يكونوا بمقتضى الجَعْلِ الإلهي "خير أُمَّة"، و"أُمَّة مسلمة"، و"أُمَّة الوسطية"، و"أُمَّة واحدة"، و"شهداء على الناس". وهذه الخصائص هي التي تُكوِّن بمجموعها حقيقة الأُمَّة في القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الأمة، الملة، أمة وسط، خير أمة، الشهادة على الناس.

The Concept of *Ummah* and its Descriptions in the Holy Quran

Taoufik Elbadri

Abstract

The purpose of this study is to demonstrate the concept of *Ummah*, in general and the essense of the *Ummah* who has inherited the faith of Prophet Ibrahim as explained in the Holy Quran, with reference to the original meaning of ummah in the Arabic tongue, and it has acquired in the Quranic usage. The scrutiny of the concept has revealed that it is a Qur'anic term composed of certain facts and has certain pillars, and it is difficult to get into its essense without recalling these facts and pillars.

With this consideration, the Ummah of Islam includes the followers of Prophet Muhammad, peace be upon him, who turned their faces to Allah the Lord of the Worlds. Upon this kind of faith those followers deserve to have the Devine decree to be considered the "best *ummah*", the "Muslim *ummah*", the moderate *ummah*", the "one *ummah*" and the *ummah* whose members are "witnesses to mankind" These characteristics all together constitute the reality of the *ummah* in the Holy Quran.

Keywords: *Ummah*; Community of faith, *Ummah* of Moderation and Balance; Best *Ummah*; Witness to mankind.

---

* دكتوراه في الفكر الإسلامي والحضارة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس- المغرب، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، الرباط. البريد الإلكتروني: tawfikb_1977@hotmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ 2018/1/13م، وقُبل للنشر بتاريخ 2018/8/26م.

مقدمة:

عرض القرآن الكريم لمفهوم كلٍّ من الأُمَّة، والأُمَّة المسلمة، وتناولهما في العديد من الآيات. والانطلاق من الذكر الحكيم في سبر غور هذا الموضوع تفرضه طبيعة هذا المصدر المعرفي الخاص المُتمثِّل في كلام الله تعالى الهادي للتي هي أقوم، والحق الذي ليس بعده إلا الضلال. وعلى هذا، فإنَّ الحقائق التي يُقدِّمها عن ماهية الأُمَّة، وأوصافها المُحدِّدة لهويتها، والوظيفة الوجودية التي لأجلها أُخرِجت للناس؛ تُمثِّل "الهدى" بكل ما تنطوي عليه هذه الكلمة من دلالات، وتُشكِّل "المقياس" الذي يُقوِّم تجربة أُمَّة الإسلام ضمن واقعها التاريخي وأطواره المختلفة منذ نشأتها الأُولى حتى اليوم؛ ما يُسهِم في معرفة متى كانت الأُمَّة مُتمثِّلةً قيمَها التي تُشكِّل كينونتها، ومتى حصل الانزياح عنها، وهو ما يجعلنا نتعرَّف النموذج الحق والأصل المقيس عليه الذي يتسم بالمعيارية (الأُمَّة المسلمة الواحدة الوسط الشاهدة على الناس كما بيَّن حقيقتها القرآن الكريم)، وكذا الواقع المعيش (الأُمَّة الإسلامية في صورتها التاريخية والمعاصرة) الذي يتطلَّب التقويم المستمر.

وسعياً إلى إدراك بعض البصائر القرآنية المتصلة بمفردة "الأُمَّة"؛ فإنَّ البحث يروم الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما دلالات مفردة "الأُمَّة" في اللسان العربي؟

- ما مفهومها في القرآن الكريم؟

- هل يُمكِن اعتبار الأوصاف التي ارتبطت بالأُمَّة الوارثة للملَّة الحنيفية مقوِّمات متلازمة تُشكِّل في المحصلة ماهيتها؟

- هل تقتضي تلك الأوصاف تكليفاً شرعياً ذا وظيفة حضارية مُفترَضة لهذه الأُمَّة؟

والغرض الأساس من درس هذا المفهوم القرآني هو الإسهام -ولو بمقدارٍ- في تأسيس تصوُّر عن جوهر أُمَّة الإسلام، ينهض على هدايات كلام الله، ويُجدِّد ما اندرس على مَرِّ السنين من معانٍ صارت اليوم غائبة، بالرغم من ارتباطها بهذه الأُمَّة، مثل: معنى

إسلام الوجه لله تعالى في بُعْده الجماعي، ومعنى الوسطية، ومعنى إلحاق الرحمة بالناس، وغير ذلك من التكاليف المنوطة بالأُمَّة قدراً وشرعاً.

ولا شكَّ في أنَّ هذا الاستكشاف لمفهوم "الأُمَّة" سيزيل عنه ركاماً من التشويه والتقزيم الذي أصابه بإذكاء النعرات الطائفية والعرقية والقبلية والقُطرية، وتشجيع النزعة الانفصالية لتجزيء المُجزَّأ، وهو الخطاب السائد اليوم الذي تهوي إليه أفئدة القوميات، ولا سيما بعد ضمور فقه الوحدة والائتلاف. وحال الأُمَّة الإسلامية الآن هو أصدق تعبير عمّا أصاب مدلولها الحقيقي من انحرافٍ كما حدَّد مقوِّماته القرآن العظيم؛ إذ إنَّها مُمزَّقة إلى دول وأقليات عاجزة، غير فاعلة على ساحة الوجود، فضلاً عن انشغال بعض فصائلها بالاقتتال والتناحر فيما بينها؛ ما يُنذِر بمزيدٍ من الفُرقة والاختلاف والتشرذم، ذلك أنَّ دواعيه تبدو عميقة الجذور، وتمتد إلى أغوار النفس والفكر، وهذا يُحتِّم علينا إبراز حقيقة الأُمَّة بالصورة التي أرسى أُسسَها كلامُ الله تعالى، وهو ما يسعى البحث إلى الكشف عن بعض جوانبه.

وتظهر فائدة البحث في انطلاقه من نصوص القرآن الكريم ابتداءً؛ فهي مادته الرئيسة في استخراج المعاني، وهذا المسلك نحسب أنَّه لم يأخذ بعدُ الاهتمام الذي يستحق في ساحتنا العلمية؛ لأنَّ دعوى اعتبار القرآن مصدر المعرفة ستظل بلا أثر إذا لم يعمل الباحثون تترى على التماس الحقائق واستنباطها من الذكر الحكيم مباشرة، واكتفوا فقط بتوظيفه في تأصيل الأفكار الموجودة قبلاً. وقد جاء هذا البحث ليُسهِم -نوعاً ما- في إغناء ذلك المنهج، ويغترف من مَعِين الكتاب العزيز، على سبيل التدبر في الآيات التي ورد فيها حديث عن الأُمَّة خاصَّةً من جهة حقيقتها وأوصافها وخصائصها؛ بُغْية تكوين رؤية معرفية مُستنبَطة من القرآن الكريم، تتسم بضربٍ من الإحاطة والشمول لدلالة "الأُمَّة" بوصفها ذاتاً، ومضموناً، وتكليفاً، وقيماً.

والحقيقة أنَّ ثمَّة جهوداً كثيرةً سابقةً تناولت المسألة من منظور قرآني خالص، وأفردتها بالبحث والتأليف، مثل: دراسة "مفهوم الأُمَّة في دلالتها العربية والقرآنية" لحسن فرحات، وهي دراسة بحثت في دلالة لفظ "الأُمَّة" في الاستعمال اللغوي ومفهومه في القرآن الكريم

باستقراء مواضعه وسياقاته، وبحث "حول مفهوم الأُمَّة في قرن: نقد تراكمي مقارن" للسيد عمر، وذلك ضمن حولية "أُمَّتي في العالم"؛ إذ قدَّم الباحث قراءة نقدية مقارنة لأهم الأدبيات العربية التي تناولت المفهوم، وخلُص إلى أنَّ مضمون هذا المفهوم ظل في أزمة مدَّة قرن، وأنَّ الحل يكمن في إعادة بنائه بتوصيف دلالاته العربية وبنيته القرآنية. ثمَّ جاء بحث "مفهوم الأُمَّة في القرآن الكريم والحديث الشريف" لعبد الكبير حميدي، الذي توسَّع في استقراء المفهوم بمنهج الدراسة المصطلحية الصارم في تحليل الخطاب، وفي تتبع اللفظة المدروسة في نص القرآن ومتن السُّنة، وكشف علاقتها بأسرتها المفهومية.

ومن الإسهامات الأُخرى في تأصيل هذا المفهوم كتاب "الأُمَّة القطب" لمنى أبو الفضل، التي انطلقت من مضمون "الأُمَّة الوسط" لاستخلاص ملامح "الأُمَّة القطب" بوصفها نقطة إشعاع وجذب على المستوى الداخلي، ومركز احتواء وصهر على المستوى الخارجي، وبوصفها أيضاً وعاء القرآن والعقيدة اللذينِ هما مصدر بقائها. وتوجد بحوث أُخرى تناول كلٌّ منها الموضوع بمنهجية خاصة، ومنظور مختلف. أمّا هذا البحث فيروم البناء على ذلك الجهد المُتقدِّم من خلال الكشف عن أبعاد أُخرى بنظرات تأملية في المفهوم، عن طريق الجمع بين معنى اللفظ في اللسان العربي ومعناه في السياق القرآني، والأوصاف التي تعلَّقت به وأكسبته دلالات متفرِّدة، وكذا النظر إلى طبيعة الوظيفة التي أُسنِدت إلى مَن استحقوا اسم "الأُمَّة" بخواصها المعلومة. وقد انتهى البحث إلى خلاصةٍ مفادها أنَّ لفظ "الأُمَّة" هو مصطلح قرآني مُركَّب، له متعلقات وحقائق متكاملة، وأنَّ معناه الكلي لا يُدرَك إلا باستحضار جميع المقوِّمات المُكوِّنة لماهيته كما سيأتي بيانه.

وفيما يخص المنهج المُتَّبَع في البحث، فإنَّه يعتمد أساساً على المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك باستقراء آيات القرآن الكريم، وتتبُّع موارد لفظ "الأُمَّة" فيها، وتحليل سياقها، والأوصاف المفردة، مع الوقوف على دلالتها في الاستعمال اللغوي والنسق القرآني.

أولاً: مفهوم "الأُمَّة" في اللغة

لفظ "الأُمَّة" مشتق من الجذر اللغوي "أَمَمَ". والأَمُّ (بالفتح): القَصْدُ، أَمَّهُ يَؤُمُّهُ أَمّاً، إذا قصده، وتَيَمَّمْتُهُ: قصدْته. ويقال: أَمَمْتُهُ وأَمَّمْتُهُ وتأَمَّمْتُهُ وتيمَّمْتُهُ بمعنى واحد؛ أي توخَّيْته وقصدْته. وجمل مِئمٌّ: دليل هادٍ، وناقة مِئمَّةٌ كذلك. وكله من القصد؛ لأنَّ الدليل الهادي قاصدٌ. والأَمُّ: العَلَمُ الذي يتبعه الجيش. والأُمَّةُ: الحالة. والأُمَّةُ: الشِّرعة والدِّين، والطريقة. يقال: فلان لا أُمَّة له؛ أي لا دِين له ولا نِحلة. والأُمَّةُ: السُّنة. وأَمَّ القومَ، وأَمَّ بهم: تقدَّمهم، يراد بذلك الإمامةُ. والإمامُ: كل مَن ائتمَّ به قوم. والأُمَّةُ: الإمام. والأُمَّةُ: الائتمام بإمام. والأُمَّةُ أيضاً: النعيم، والحال والشأن. والأُمَّةُ: القرن من الناس. يقال: قد مضت أُمم؛ أي قرون. وأُمَّةُ كل نبي: مَن أُرسِل إليهم من كافر ومؤمن. وكل جيل من الناس هم أُمَّةٌ على حِدَة. والأُمَّةُ: الجيل والجنس من كل حي. وهي أيضاً: الرجل المتفرِّد بدِين. والأُمَّةُ: الـمُعَلِّم، وقيل: الرجل الجامع للخير. وتأتي أيضاً بمعنى القامة، والوجه، والهيئة، والحِين، والوالدة (أي الأُمّ)، والطاعة، والعالِم، والقوم، والجماعة. وأُمَّةُ اللهِ: خلقه. يقال: ما رأيْتُ من أُمَّة الله أحسنَ منه.[1]

وتأسيساً على ذلك، فإنَّ لفظ "أُمَّة" يشتمل في أصله اللغوي على دلالات متنوعة، منها: القصد، والإمامة، والطريقة والسُّنة، والدِّين والشِّرعة، والملَّة، والقرن من الناس، والرجل المنفرد بدِين، والجيل، والحِين، والجماعة، والقوم، الوجه، والقامة، والأُمّ.

ولا شكَّ في أنَّ هذه المعاني تُجلي ثراء المفهوم، وتُنوِّع استعمالاته وَفق السياق الوارد فيه. أمّا استعمالها للدلالة على الجماعة من الناس الذينَ لهم مقصد ووِجْهَة واحدة، فيظل مفهوماً شائعاً؛ لأنَّه يتضمَّن جُلَّ المعاني الأُخرى آنفة الذكر. ولهذا حينما عرَّف الراغب الأصفهاني لفظ "الأُمَّة" ابتداءً، قال: "كل جماعة يجمعهم أمر ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيراً أو اختياراً."[2] وقد يُستخرَج من هذا التعريف معنى الجماعة، والدِّين، والزمن، والقصد، ومدلولات أُخرى.

---

[1] ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، 1956م، مادة: أَمم، ج1، ص213-215.

[2] الأصفهاني، الراغب. **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: سيد كيلاني، بيروت: دار المعرفة، د.ت، مادة: أَمَّ، ص22.

وإذا أمعنا النظر في تلك المعاني اللغوية، فإنَّه يُمكِننا ردُّ أغلبها إلى الأصول الآتية:

1. **القصد**: ذلك أنَّ لفظ "الأُمَّة" مشتق من "الأَمّ"؛ أي القصد. يقال: أَمَمْتُ إليه، إذا قصدْته. فمعنى "الأُمَّة" في الدِّين أنَّ مقصدهم مقصد واحد، ومعنى "الأُمَّة" في النعمة إنَّما هو الشيء الذي يقصده الخَلْق ويطلبونه، ومعنى "الأُمَّة" في الرجل المنفرد الذي لا نظير له أنَّ قصده منفرد من قصد سائر الناس، ومعنى "الأُمَّة" القامة، وسائر مقصد الجسد، ولا يخرج شيء من هذا الباب عن معنى القصد.[3] وقال أبو البقاء الكفَوي: "الأُمَّة بالضم، في الأصل: المقصود، كالعمدة والعدة في كونهما معموداً ومعداً، وتسمى بها الجماعة من حيث تؤمها الفرق."[4] ويفيد القصد معنى استقامة الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ (النحل: 9)؛ أي على الله تبيين الطريق المستقيم. ومن معاني القصد أيضاً: الوسط، والعدل، والاعتزام، والتوجه، والنهوض نحو الشيء على اعتدال واستقامة من دون ميل.

2. **الأصل**: ذلك أنَّ الهمزة والميم أصل واحد، يحيل إلى فروع دلالية، منها: الأصل، والمرجع.[5] وكل ما كان أصلاً لوجود شيء، أو تربيته، أو إصلاحه، أو مبدئه، يقال له: أُمٌّ. وإنَّ كل أمر ضُمَّ إليه سائر ما يليه يسمى أُمّاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ (الزخرف: 4)؛ أي أصل الكتاب، ومنه أُمُّ القرى: مكَّة شرَّفها الله تعالى؛ لأنَّها قِبلة الناس يؤمُّونها.[6] والأُمَّة أصل يتفرَّع منه غيره؛ فهي تلد وترضع وتحتضن، ويتلازم البِرُّ إليها مع التوحيد، ولا يسبق الإحسان إليها إلا هو.[7]

---

[3] ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: أَمم، ج1، ص213–215.

[4] الكفوي، أبو البقاء. **الكليات**، بيروت: مؤسسة الرسالة "ناشرون"، 1998م، ص181.

[5] ابن فارس، أحمد بن زكريا. **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دمشق: دار الفكر، 1979م، مادة: أَمَّ، ج1، ص21.

[6] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة: أَمَّ، ص23. انظر أيضاً:
- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: أَمم، ج1، ص216.

[7] عمر، السيد. "حول مفهوم الأُمَّة في قرن: نقد تراكمي مقارن"، بحث منشور في: **أُمَّتي في العالم**، عدد خاص: "الأُمَّة في قرن"، القاهرة: مركز الحضارة للدراسات السياسية– مكتبة الشروق الدولية، 2002م، ص100.

3. **جماعة بشرية مجتمعة على أمر جامع:** يتبادر هذا المعنى إلى الذهن عند إطلاق اللفظ ابتداءً. وقد ثبت بالاستقراء استعمال لفظ "الأُمَّة" بهذه الدلالة في معهود العرب في الخطاب بصورة كبيرة.

4. **الدِّين:** يشمل ذلك معنى الطاعة، والشِّرعة، والطريقة، والملَّة، والسُّنة، وكذا الأمر الجامع الركين الذي يُؤلِّف بين أفراد أُمَّة ما، ويتقوّى على أساسه الاجتماعُ البشري؛ لما له من سلطان على النفوس، وتتولَّد منه العصبية الدينية القادرة على الحشد واستقطاب ما ليس لغيرها. وعلى هذا، فإنَّ الدِّين وما يندرج في معناه يُعَدُّ عنصراً رئيساً في تكوين الأُمَّة.

5. **الزمن:** هو اسم لقليل الوقت وكثيره، وظرف كل الأمم ووعاؤها؛ فلكل أُمَّة حين من الدهر توجد فيه، وأجل معلوم عند الله تعالى تمضي إليه.

وخلاصة القول إنَّ لفظ "الأُمَّة" عريق في اللسان العربي، غني حافل بالمعاني العميقة، التي تعود في عمومها إلى أصول جامعة ناظمة، مدارها أنَّ الأُمَّة هي "جماعة من الناس قصدها واحد"، وأنَّها بهذا الاعتبار ذاتٌ ومضمونٌ؛ فالذات تتجلّى في الاجتماع البشري قَلَّ أو كثر، والمضمون يتمثَّل في القصد الجامع، وما ينطوي عليه من دِين وطريقة وشِرعة. هذا ما استقر عليه رأي اللغويين في ما يخص مفهوم "الأُمَّة"، لتبدأ بعد ذلك رحلة البحث عن دلالته في القرآن الكريم.

ثانياً: مفهوم "الأُمَّة" في القرآن الكريم

ورد لفظ "الأُمَّة" اسماً مفرداً بالتنكير والتعريف سبعاً وأربعين مرَّة في القرآن الكريم، وورد فيه لفظ "أُمَّتكم" -مضافاً إلى ضمير المخاطب- في موضعِين اثنين، وورد بصيغة الجمع اثنتي عشرة مرَّة، منها "الأُمم" -بالتعريف- في موضع واحد. ولم يرد لفظ "الأُمَّة" بهذه الصورة؛ أي مفردة مُعرَّفة بالألف واللام.[8]

[8] مجمع اللغة العربية. **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1989م، مادة: أمم، ج1، ص80.

وبعد استقراء تلك المواضع، بدا أنَّها تأتي بالمعاني الآتية:

1. جماعة من الجنس البشري مجتمعة على دِينٍ حق، أو اعتقاد باطل:

الآيات التي جاءت فيها كلمة "أُمَّة" بهذا المعنى كثيرة، منها قوله تعالى:

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (البقرة: 213).
- ﴿مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: 66).
- ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ (الأعراف: 159).
- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ (الأعراف: 168).
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ (يونس: 47).
- ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (يونس: 49).
- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج: 67).

والـمُلاحَظ أنَّ كلمة "أُمَّة" في الآيات الكريمة قد وردت بمعناها الأصلي في اللسان العربي؛ أي الجماعة من الناس، أمّا الفرق بين المفهوم اللغوي والمفهوم القرآني فيظهر في السياق الجديد؛ إذ أصبح لهذه المفردة صبغة ربانية في الكتاب المبين، تُعبِّر عن مراد الله -جَلَّ ذكره- منها، فهو قائلها ومُنشِئها، وكلماته -سبحانه وتعالى- فيها من البصائر ما لا يحصى، وتلك خصيصة المفاهيم القرآنية التي تخدم جميعها مقصد الهداية.

وقد تأتي أيضاً بمعنى الطائفة المتميزة من الجماعة الكبيرة الأُمّ؛ وهي القوم. فقد أخبر الحق أنَّ مِن قوم موسى عليه السلام أُمَّة يهدون بالحق، وذكر -جَلَّ شأنه- أيضاً أنَّ مِن أهل الكتاب أُمَّة مقتصدة؛ أي جماعة منهم قليلة العدد عادلة مستقيمة على الحق. وقد استعمل القرآن الكريم لفظ "أُمَّة" في معرض التنبيه لسُنَّة الله تعالى السارية في خلقه، وصاغها بأسلوب كلي نافذ، مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام:108)، وقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ (يونس: 47)، وقوله عزّ وجلّ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (يونس: 49)، وقوله تبارك اسمه: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ (الحج: 67). وعلى هذا، فإنَّ لفظ

"الأُمَّة" في هذه السياقات لم يأتِ إلا بمعنى الجماعة الإنسانية المجتمعة على أمر جامع قد يكون حقّاً أو باطلاً.

2. جماعات من أحياء وكائنات ليست من جنس البشر:

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُم﴾ (الأنعام: 38)؛ أي كل نوع منها على طريقة قد سخَّرها الله عليها بالطبع.[9] وأمثالكم صفة لِ"أُمم، يعني أمثالهم في الأرزاق والآجال، والموت والحياة، والحشر والنشر. وقيل: في معرفة الله وعبادته."[10] ولم يذكر الحق -سبحانه- طبيعة المماثلة القائمة بين الأُمم البشرية، وأُمم الأرض من المخلوقات الأُخرى، ولكن يُفهَم من ذلك -والله تعالى أعلى وأعلم- أنَّ ثمَّة طبائع مشتركة مطلوب من إنسان الاستخلاف أنْ يكتشفها ليتأكَّد له بالبرهان صنْع الله الذي أتقن كل شيء خلقه. فلفظ "الأُمم" هنا مدعاة للبحث العلمي وإثارة عقل الإنسان لكي يحفر ويُنقِّب عن السنن الحاكمة في الأُمم المماثلة لنا.

3. جماعة من الناس مُستسلِمة لله تعالى:

من ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ (البقرة:128). ولم يرد في القرآن الكريم لفظ "أُمَّة" بهذا الوصف البليغ إلا في هذه الآية، والمراد جماعة من الناس مؤمنة برب العالمين، منقادة له حقيقة وليس ادِّعاء. وسيأتي تفصيل هذا المعنى في موضعه لاحقاً.

4. أُمَّة محمد ﷺ:

أشار القرآن الكريم إلى هذه الأُمَّة في أكثر من موضع، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ (البقرة: 143)، وقوله جَلَّ ثناؤه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: 110). والسياق في هاتين الآيتين يدل على أنَّ الأُمَّة المقصودة هنا هي الأُمَّة التي أسلمت لبارئها، وآمنت بنبوَّة محمد ﷺ، وقد خصَّها الحق بهذا التكليف المستمر إلى يوم الدِّين، وفي هذا تفصيل سيذكر بعدُ في محلِّه.

[9] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، ص68.

[10] ابن عادل، عمر بن علي. **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، بيروت: دار الكتب العلمية، 1998م، ج8، ص123.

5. جماعة من الناس:

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ (القصص: 23). فلجمع هؤلاء الأفراد قصدٌ واحد هو سقي الماء. وبهذا الاعتبار، فإنَّهم أضحوا أُمَّة مجتمعة على أمر مُعيَّن.

6. حِين ومدَّة من الزمان:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ (هود: 8). قال الطبري: "أُمَّة معدودة أي وقت محدود وسنين معلومة، وأصل الأُمَّة أنَّها جماعة من الناس تجتمع على مذهب ودِين، وإنَّما قيل للسنين "المعدودة" في هذا الموضع أُمَّة؛ لأنَّ فيها تكون الأُمَّة."[11]

وثمَّة تلازم بين الزمن والأُمَّة؛ فالسنين ظرف للأُمم. وقد عبَّر القرآن الكريم في آيات كثيرة عن الأُمم بالقرن (بصيغة المفرد)، وبالقرون الأُولى (بالجمع)، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ (الأنعام: 6)، وقوله جَلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (القصص: 43).

والقرن اسم لمدَّة من الزمان على اختلافٍ في تحديدها، وقيل: مئة سنة، وهو الراجح. والقرن من الناس: أهل الزمان الواحد. ونقل ابن منظور عن الأزهري قوله: "والذي يقع عندي، والله أعلم، أنَّ القرن أهل كل مدَّة كان فيها نبي، أو كان فيها طبقة من أهل العلم، قلَّت السِّنون أو كثرت."[12] والأُمَّة التي تُهدِر الزمن يذهب وجودها جُفاءً، ويكون أمرها فُرُطاً؛ لأنَّ قيمة الأُمم تقاس بالإيمان والعمران، لا بالوجود الخامل الذي يكون من أجل العيش، ورُبَّ وجودٍ كالعدم من جهة انتفاء مغزاه لدى الموجودين، والأيام عند هؤلاء متساوية فارغة بلا مضمون ولا إنجاز.

[11] الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، تحقيق: بشار عواد وعصام فارس، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1315هـ/1994م، ج4، ص259.

[12] ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج13، ص334.

7. دِين وملَّة:

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الزخرف: 22). فلفظ "أُمَّة" هنا جاء بمعنى الدِّين والمِلَّة، والطريقة، والسنة، وهي ألفاظ متقاربة من حيث دلالتها. وبناءً على هذا، فقد رأى بعض المُفسِّرين أنَّ المراد بلفظ "أُمَّة" في قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (البقرة: 213) هو الدِّين؛ فالناس في بداية أمرهم كانوا على دِين واحد يجمعهم، ومكثوا على هذه الحال حِيناً من الدهر، ثمَّ حدث التبديل في الدِّين بعد ذلك، فانطلقت بعثة الأنبياء لتصحيح الاعتقاد، وتجديد ما اندرس من معالم الإيمان الحق.

8. رجل جامع لخصال الخير، وقائم مقام جماعة في عبادة الله:

من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ (النحل: 120). وفي كونه أُمَّة معنيان؛ الأول: أنَّه كان وحده أُمَّة من الأمم لكماله في جميع صفات الخير، والثاني: أنْ يكون أُمَّة بمعنى مأموم يؤمُّه الناس ليأخذوا منه الخير، فيكون كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: 124)، فهو بهذا المعنى إمامٌ في الدِّين؛ لأنَّ الأئمة مُعلِّمو الخير ومرشدون إليه.[13]

9. جماعة المسلمين المُوحَّدة المجتمعة على الحق:

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء: 92)، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ (المؤمنون: 52). فقد وردت كلمة "أُمَّة" في هذين الموضعين بصورة مُكرَّرة لإفادة تأكيد حقيقة أنَّ أُمَّة الإسلام هي أُمَّة واحدة، دينها واحد، وربها واحد جدير بأنْ يُتَّقى ويُعبَد، وهذا ما يحفظ الاجتماع ويُديمه، ويُقوِّي الوحدة الحقيقية بين المؤمنين، ولا يُمكِن لشيء سواه أنْ ينوب منابه في ذلك الأمر، وسيأتي تفصيلٌ أكثر في هذا بعدُ.

[13] الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر. **تفسير الكشاف**، بيروت: دار الكتاب العربي، ط1، 1407هـ، ج2، تفسير الآية 120 من سورة النحل، ص642.

10. جامعة الروابط الأسرية والقرابات النَّسَبية التراتبية:

للأُمَّة في النسق القرآني أنساق تعود بالفرع إلى أصله الأول، وقد أظهر الكتاب المبين جانباً من ذلك في معرض التنبيه على آيات الله في خلقه، ومن ذلك قوله جَلَّ شأنه:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء: 1).
- ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ (الفرقان: 54).
- ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ (الشعراء: 214).
- ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: 21).
- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات: 13).

فهذه الآيات، وغيرها كثير، تشير إلى بعض الصلات والوشائج الإنسانية والتشكيلات البشرية التي تتألَّف منها "الأُمَّة" باعتبارها جامعة لها ووعاءها، بدءاً بالعلاقة الزوجية بين الذكر والأنثى التي تستند إلى الميثاق الغليظ، وشِرعة الزواج التي تتولَّد منها قرابة النسب (الأبوة، والأمومة، والبنوة، والأخوة، والجدودة، والعمومة، والخؤولة)، وقرابة المصاهرة. ومن تلك الروابط تتشكَّل وتتطوَّر وتتوسَّع باقي الأنساق الاجتماعية التي ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم، من قبيل: "الفصيلة"، و"العشيرة"، و"الرهط"، و"الشعوب"، و"القبائل". أمّا الشعب فهو النسب الأبعد، وأبو القبائل وجامعها، وقد سُمِّي شعباً؛ لأنَّ القبائل تتشعَّب منه. وأمّا القبيلة فهي ما انقسم فيها الشعب، وسُمِّيت بذلك لتقابُل الأنساب فيها، وتجمع العَمائِر، والعِمارة ما انقسم فيه أقسام القبيلة، وتضم البطون، والبطن ما انقسم فيه أقسام العِمارة، ويشمل الأفخاذ، والفخذ ما انقسم فيه

أقسام البطن ويجمع الفصائل، والفصيلة عشيرة الرجل ورهطه الأَدْنَون وأقرب آبائه إليه.[14] ولمجيء هذا الترتيب وَفق بنية الإنسان مغزى يشي بالترابط والتلاحم بين أعضاء الجسم الواحد؛ فالأُمَّة هي الجسد الناظم لكل تلك الأنساق؛ لأنَّها الأصل والمعدن، وما عداها كالجداول المتشعبة منها.[15]

إنَّ إقرار القرآن الكريم بانتظام البشر بالفطرة ضمن أُسر وقبائل وشعوب، واعتبار تلك الأنساق من خلق الله وآياته وجَعْلِه وتقديره؛ لا يعني القبول بأنْ تكون سقفاً نهائياً يتحدَّد به الإنسان، ويتشكَّل به المعيار الأخير للخير والشر؛ لأنَّ هذا يُفضي إلى التمركز حول العرق،[16] ومفهوم "الأُمَّة" أرحب بكثير من ذلك الأفق الضيق للعرقية والعصبية القومية وما يجري مجراهما.

هذا طرف من دلالة "الأُمَّة" بصورة عامة في النص القرآني، يُظهِر المعنى المتفرِّد الذي تنطوي عليه، ويكشف اتساع هذا المفهوم وشموله جملة من الحقائق تصوغ في كليتها ماهيته. وعلى هذا، فإنَّ الأُمَّة في الذكر الحكيم لا تُمَثِّل فقط أعداداً بشرية، وإنَّما ينضاف إليها معانٍ وقيم ذات مضمون إيماني وأخلاقي، وفعل عمراني قائم على تفاعل واعٍ بين تعاليم الوحي وموجودات الكون. وقد تحقَّق مفهوم "الأُمَّة" بهذا المعنى أول مرَّة في آدم عليه السلام، ثمَّ في جماعة الأنبياء والرسل وأتباعهم الذين عُهِد إليهم بإقامة الدِّين وعدم التفرُّق فيه، فاستمر بذلك شهود الأُمَّة التاريخي، واتصلت حلقاته من دون انقطاع على مَرِّ الدهور.

ومن البصائر التي يُقدِّمها القرآن الكريم في هذا الشأن تساوي الأُمم جميعها من حيث الوجود، واختلافها من جهة الشهود الذي لم يتحقَّق إلا لأُمَّة الإيمان. أمّا غيرها من الأُمم فقد حكى القرآن عن هلاكها بسبب إفسادها في الأرض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا

[14] القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الفزاري. **نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياري، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1980م، ص13.

[15] عمر، **حول مفهوم الأُمَّة في قرن: نقد تراكمي مقارن**، مرجع سابق، ص105.

[16] الفاروقي، إسماعيل راجي. **التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة**، ترجمة: السيد عمر، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2016م، ص184.

﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ (يس: 31). والامتداد الوجودي للأُمم التي تشابهت قلوبها باعتبارها "أُمَّة الدعوة" يستدعي بالضرورة وجود "أُمَّة الإجابة"؛ فما خلا زمان من وجود هاتين الأُمَّتين باستثناء لحظة النشأة الأُولى التي كان فيها الناس "أُمَّة واحدة"، وسُنَّة الله السارية في الخلق اقتضت التدافع بينهما. وفي سياق سُنَّة التجديد، فقد أخرج رب العالمين أُمَّة القرآن للناس أجمعين، وهي الأُمَّة الوارثة للملَّة الحنيفية التي تُعَدُّ امتداداً للأُمَّة المسلمة الأُولى، وقد خصَّها الحق بأوصاف تنطوي على تكاليف، فكانت خيرَ أُمَّة، ووسطاً، وواحدةً، وشاهدةً على الناس في الدنيا إلى يوم الدِّين.

ثالثاً: الأوصاف المقترنة بالأُمَّة في القرآن الكريم

المقصود بالأُمَّة هنا هو الأُمَّة الوارثة للملَّة الحنيفية التي أخرجها الله تعالى للناس، وانتهى إليها ميراث النبوة والأنبياء، واتَّبعت ما جاء به النبي الخاتم ﷺ الذي اكتمل ببعثته الدِّين. وقد اقترن بهذه الأُمَّة في الكتاب العزيز أوصاف صريحة، ومعلوم أنَّ من أغراض الوصف بيان الموصوف وتخصيصه، فجاءت تلك الأوصاف القرآنية لتحديد ماهية الأُمَّة الموصوفة بها، وبيان وظيفتها الوجودية، وطبيعة التكاليف المنوطة بها. وبعد استقراء آيات القرآن الكريم ثبت ورود هذه الأُمَّة موصوفة بوصف"مسلمةً"، و"وسطاً"، و"واحدةً" في مواضع متفرقة، وجاءت في موضع آخر مضافاً إليها اسم صفة "خير أُمَّة". وفيما يأتي بيان لمضمون كل وصف على حِدَة:

1. وصف "الأُمَّة المسلمة":

يستفاد هذا الوصف، الذي يُعَدُّ أصل الأوصاف الأُخرى، من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾ (البقرة: 127). وتحليل المقصود بـِ"أُمَّة مسلمة" يتطلَّب الوقوف على أمرين؛ أولهما: حقيقة الإسلام المستمد منه الوصف المذكور، وثانيهما: ماهية الأُمَّة المسلمة الكاشفة عن شروط انطباق الوصف على الموصوف.

أ. **حقيقة الإسلام**: يدور لفظ "الإسلام" على الاستسلام والانقياد. يقال: أَسْلَمَ بمعنى دخل في السلم، وهو الاستسلام، واستسلم؛ أي انقاد وصار مُسلِماً، وأَسلَم أمره إلى الله؛ أي سلم. وأسلم من الإسلام، وهو الانقياد؛ لأنَّه يَسْلَم من الإباء والامتناع.[17] وقد صار لهذه الكلمة في القرآن الكريم معنىً خاصٌ، هو طاعة الله، مثل لفظ "الدِّين" الذي يعني في أصله اللغوي الطاعة، وقد استعمله العرب لطاعة الله تعالى. ولهذا المعنى وجوه، ونتائج، وتاريخ. والقرآن المجيد دلَّ على ذلك كله؛ فقد ورد لفظ "الإسلام" في الكتاب المبين بمعنى العبودية؛ أي تسليم النفس لرضا الله تعالى بالكلية، والاستجابة لأوامره، والانقياد لمشيئته، فترتفع منزلة العبد بحسب كماله في الإسلام. قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ (البقرة: 130– 132).

تشير هذه الآيات إلى مرحلة من تاريخ الإسلام، بدأت بإعلان إبراهيم عليه السلام أنَّه مسلم لرب العالمين، وعهده إلى ذريته بذلك، وإلى يعقوب أيضاً، حيث جعلهم الله عز وجل أُمَّة مخصوصة لخدمة الدِّين، وهذا معنى الإسلام لله. وفي موضع آخر بيَّن الله –جَلَّ شأنه– سعة معنى الإسلام، فقال عَزَّ مِن قائل: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ (آل عمران: 83). وقد أشارت هذه الآية إلى أربعة أمور؛ الأول: إسلام كل شيء لله تعالى، ومَن ليس كذلك فهو شاذ بين خَلْقٍ مسلم هائل لا تحصى عناصره. والثاني: رجوعهم جميعاً إليه، وهذا من مقتضيات الإسلام، فإذا رجعوا إلى غيره فإنَّه لن يُعَدَّ إسلاماً، وكان مناقضاً له. والثالث: تحقُّق الإسلام بطاعة رسله، وهذا ما يظهر من سياق الآية. والرابع: عدم وجود اختلاف في الإسلام، فإنْ كلهم أسلموا لله، فدينُهم واحد. قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾ (آل عمران:20)؛ ذلك أنَّ الإسلام ينافي الشرك، فالمسلم مؤمن بالله الواحد الأحد، وهذا

[17] الجوهري، إسماعيل بن حماد. **الصحاح**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، 1407هـ/1987م، مادة: سلم، ج6، ص1952.

مقتضى إسلام الوجه لله، ومَن أسلم فكأنَّه عاهد الخالق بالطاعة،[18] ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102).

ب. ماهية الأُمَّة المسلمة: تُمثِّل الأُمَّة المسلمة الواقع العملي للإسلام، بدءاً بآدم عليه السلام الذي شكَّل هو وزوجته وبنوه نواة هذه الأُمَّة التي يضرب عمرها بجذوره في أعماق الزمن على مدار سنين مديدة عديدة لا يعلمها إلا الخالق سبحانه،[19] وقد استمر وجودها ولم ينقطع باستمرار بعثة الأنبياء والرسل، فشكَّلت حقبة "النبي الأُمَّة والإمام" إبراهيم عليه السلام حلقة بارزة في تاريخها؛ إذ وصلت السابق باللاحق حين سأل هو وولده إسماعيل اللهَ تعالى تضرُّعاً أنْ يكون من ذريتهما أُمَّة مسلمة: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ (البقرة: 128). و"مِنْ" هنا للتبعيض؛ أي لبعض الذرية، وفي ذلك جمْع بين الحرص على تحقُّق الهداية للذرية المنتظرة، والأدب في الدعاء؛ فقد عَلِمَ إبراهيم عليه السلام من ربه تعالى أنَّه ستكون من ذريته أُمَّة ظالمة -كما سيأتي ذكره-، وأدرك أيضاً أنَّ حكمة الله في هذا العالَم جرت على أنْ يكون في الناس الأخيار والأشرار، فدعا الله تعالى بالممكن عادة.[20] وقد جاء هذا الدعاء في سياق حافل بالدلالات، أظهرها الإشارة إلى ابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات وتكاليف تناسب مقامه عند الله، فأتمَّها ووفّى، وجعله الحق إماماً للناس، فطلب أنْ تنتقل هذه الإمامة من بعده إلى ذريته، فكان الرد الرباني صريحاً؛ إذ قال جَلَّ وعلا: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة: 124). ثمَّ أخبر سبحانه بجعل البيت المحرم مثابة للناس، يُرجَع إليه مرَّة بعد أُخرى حتى يحصل به التعلُّق الروحي، وعهد إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره للطائفين العابدين، فأخذا يتضرَّعان إلى الله تعالى أنْ يجعلهما مسلمينِ، ومن ذريتهما أُمَّة مسلمة لله، وأنْ يبعث فيها رسولاً يكمل مسار تلاوة الآيات والتزكية والهداية، فكانت الاستجابة الإلهية، وصار الدعاء حقيقة حين أسلمت جُلُّ قبائل

[18] الفراهي، عبد الحميد. **مفردات القرآن: نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية**، تحقيق: محمد أجمل أيوب، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 2002م، ص148.

[19] انظر تفصيل ذلك في:

- عبد الهادي، جمال، ورفعت، وفاء. **تاريخ الأمة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتى القرن السابع بعد الهجرة في مصر والعراق**، المنصورة: دار الوفاء للطباعة والنشر، 1991م، ص47.

[20] ابن عاشور، محمد الطاهر. **التحرير والتنوير**، تونس: الدار التونسية للنشر، 1984م، ج1، ص720.

العرب، ودخلت في دين الله أفواجاً، وآمنت بما جاء به خاتم الأنبياء محمد ﷺ، وبالإسلام الذي أكمل به الدِّين.

وقد خاطب الحق الأُمَّة المسلمة الوارثة للملَّة الحنيفية التي صُنِعت آنذاك على عين الله وباتت واقعاً، فقال رب العزة مخاطباً إياها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ (المائدة: 3)، فكان إخباراً إلهياً باكتمال الدِّين، وتمام النعمة على الأُمَّة، فلا حاجة لها بعد ذلك إلى نبوَّة جديدة؛ إذ إنَّها الوارثة لها، والأمينة عليها، والإسلام هو الدِّين الذي ارتضاه رب العالمين لهذه الأُمَّة المؤمنة الناشئة، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أنَّه يتعيَّن عليها أنْ تتحقَّق بالإسلام في سيرها الطويل الشاق، وأنْ تلتمس منه الهدى. ولتعلم من ذلك الخطاب الأخير أنَّها بكلمات الله تشكَّلت أول مرَّة، وببصائرها توحَّدت قبائلها المتحاربة من قبلُ، وبتعاليمها تهذَّبت ثمَّ انطلقت لإلحاق الرحمة بالناس. والمتأمِّل في القرآن الكريم يَلحظ فيه بياناً لمنهج الوصول إلى مقام الأُمَّة المسلمة، وهو مقام يستلزم حقّاً العروج في مدارجه مكابدة كما حدث مع الرعيل الأول الذي خضع لأَضْرُب من الابتلاء والتمحيص والإعداد حتى يكون خير أُمَّة أُخرِجت للناس.

ومن كلام الله تعالى تُستفاد هوية الأُمَّة المسلمة باعتبارها تكليفاً، فهي ابتداءً أُمَّة عابدة؛ لأنَّ العبادة تُمثِّل المهمة الوجودية للإنسان الفرد، والجماعات، والأُمَّة جمعاء، وهي من مستلزمات الاستخلاف في الأرض، وتجسيد لحقيقة الطاعة الصادقة والانقياد التام للحق جَلَّ شأنه، ووَصْل الروح بعالَم الغيب، وإسلام الوجه للبارئ في صوره الفردية والجماعية والعمرانية. وهي أيضاً أُمَّة مؤتلفة وجدانياً، ومتراحمة اجتماعياً بين أفرادها على اختلاف أجناسهم. ثمَّ إنَّها أُمَّة العفة والصدق (قُطبا أخلاق الإسلام)؛ لأنَّها تُعلي من شأن الفضيلة، وتغرس القيم، وتتعهَّدها، وتحرسها من الضياع بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذلك مسلكها للتحصين من التسفُّل الأخلاقي، وشرط لبقائها على الخيرية. وهي أيضاً أُمَّة رسالية مُكلَّفة ببيان الدِّين الحق للعالمين، ومجادلة المكابرين بالتي هي أحسن؛ إحقاقاً للحق، ودحضاً للباطل، ودفعاً للأوهام التي أضلَّت خلقاً كثيراً.

تلك هي بعض ملامح الأُمَّة المسلمة، التي تُمثِّل منزلة تقاصرت عنها هذه الأُمَّة منذ أمد بعيد حتى اليوم، وإنَّ تحقُّق الأُمَّة بالإسلام من جديد يبدأ بترك كل صور هجر القرآن، والإقبال عليه وفهمه بتجرُّد من أهواء النفوس ورواسب المذاهب الفكرية والعقدية وجميع الأكنَّة التي تحجب رؤية الحق كما هو، عندئذٍ يحصل الانتفاع الفعلي بهداياته، فيقع التحوُّل المأمول في النفس والفكر والسلوك. ولا شكَّ في أنَّ التجربة النبوية تُمثِّل خير حافز للمُتوسِّمين الباحثين عن سُبل إخراج الأُمَّة المسلمة الفضلى من الأُمَّة الإسلامية الحالية.

2. وصف "الأُمَّة الوسط":

يُعَدُّ هذا الوصف فرعاً من الوصف الأول، والأصل فيه قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143). ويدل لفظ "الوسط" في الاستعمال اللغوي إجمالاً على خمسة معانٍ، يُمكِن بسطها على النحو الآتي:

الأول: البَيْنِية؛ أي الوجود بين أشياء أو أشخاص.

الثاني: الوقوع في وسط الشيء.

الثالث: الأجود والأفضل بالقياس إلى غيره.

الرابع: ما قام في النفس أنَّه مستقيم؛ وهو العدل والإنصاف في الأمور كلها.

الخامس: القصد المصون عن الإفراط والتفريط.

ومدار هذه الدلالات نفسها يقوم على أصلينِ جامعينِ؛ الأول: مركز الشيء وبؤرته، والثاني: الخيرية؛ أي الذي هو خير وأفضل وأحسن من غيره.[21] أمّا دلالة "الوسط" في القرآن الكريم فيُمكِن بيانها فيما يأتي:

---

[21] انظر هذه المعاني بتفصيل في:

- ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج7، ص426.
- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج6، ص108.
- الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة: وسط، ص869.

أ. لفظ "الوسط" في القرآن الكريم:

وردت مادة "وسط" في الكتاب العزيز بصيغ مختلفة في خمسة مواضع،[22] هي:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143)؛ فقد جاءت لفظة "وسطاً" بمعنى "خياراً"، وسيأتي تفسيرها لاحقاً.

- ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ۝٢٣٨﴾ (البقرة: 238)؛ أي الوسطى بينها، أو الفضلى منها خصوصاً.[23]

- ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (المائدة: 89)؛ أي مِن أقصده؛ لأنَّ منهم مَن يُسرِف في إطعام أهله، ومنهم مَن يقتر.[24]

- ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨﴾ (القلم: 28)؛ أي أعدلهم وخيرهم.[25]

- ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ (العاديات: 5)؛ أي توسَّطن به جمعاً من الأعداء.[26]

يُستفاد ممّا سبق أنَّ لفظ "الوسط" في القرآن الكريم جاء بمعانٍ لا تبتعد في عمومها عن دلالاته اللغوية؛ فباستثناء الآية الأخيرة التي يفيد فيها معنى الوقوع وسط المكان أو الجمع، فإنَّه لم يخرج في باقي الآيات عن مدلول الخيرية والقصد والاعتدال.

والـمُلاحَظ أنَّه حين يُستعمَل في سياق قرآني مُحدَّد، فإنَّه يأتي في بعض الآيات مُحمَّلاً بمضمونه اللغوي، ومشحوناً أيضاً بمضمون إيماني، مثل: "الصلاة الوسطى"، و"أُمَّة وسطا"، حيث معنى الظرفية أو البينية هَهُنا يتضاءل ليشرع الباب أمام الدلالات المتساوقة مع سياق حافل بالحقائق، فيرتقي اللفظ من المعهود في الكلام البشري إلى مقام التعبير

---

[22] مجمع اللغة العربية، **معجم ألفاظ القرآن الكريم**، مرجع سابق، مادة: وسط، ج2، ص1177.

[23] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة: وسط، ص869.

[24] الزمخشري، **تفسير الكشاف**، مرجع سابق، ص307.

[25] المرجع السابق، ص1131.

[26] الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، مرجع سابق، ج3، ص522.

عن بيِّنات الذكر الحكيم، ثمَّ يصبح للمفهوم أبعاد أُخرى، وهو ما سيأتي تفصيله تالياً عند تحليل الدلالات المُتضمَّنة في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾.

ب. مضمون الأُمَّة الوسط:

يشير قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143) إلى أنَّه تعالى قد جعل الأُمَّة المسلمة الوارثة للملَّة الحنيفية أُمَّةً وسطاً. ومدار الجَعْل هنا هو على الوَضْع والتصيير والخَلْق،[27] ومعناه في القرآن الكريم يأتي على خمسة أوجه، هي: الوصف، والفعل، والقول، والخَلْق، والتسمية.[28]

ويرى الراغب الأصفهاني أنَّ "جَعَلَ" هو لفظ عام في الأفعال كلها، وأنَّه أعمُّ من "فَعَلَ" و"صَنَعَ"، وثبت أنَّه يأتي أيضاً بمعنى صار، وأوجد، وتكوين شيء من شيء، وتصيير الأمر على حالة دون حالة، والحكم بالشيء على الشيء، حقّاً كان أو باطلاً.[29] والجَعْل هنا يدل على الإرادة الإلهية؛ فمشيئة الله المطلقة اقتضت أنْ تكون الأُمَّة المؤمنة "وسطاً"، وفي ذلك حكمة ربانية بالغة، يُمكِن استكناه بعض مظاهرها من خلال تتبُّع سياق هذا الجَعْل المرتبط بجَعْل آخر يخص القِبلة وابتلاء الأُمَّة الوارثة لملَّة إبراهيم بترك قِبلته والاتجاه جهة المسجد الأقصى، فكان التمحيص ليَعلمَ الله -وهو تعالى أعلم- مَن يتَّبع الرسول ممَّن ينقلب عليه، وكانت حقّاً محنة كبيرة إلا على الذين هدى الله. وما فتئ الرسول ﷺ يُقلِّب وجهه في السماء راجياً من ربه أنْ يستقبل البيت الأول الموضوع للناس، الذي جعله الحق مباركاً وهدىً للعالمين، فتحقَّق التحويل إلى القِبلة المرضية، وارتقت الأُمَّة بهذا الابتلاء، وحصل التمييز، وظهر صدق إسلامها لله، فجعلها أُمَّةً وسطاً، وستظل كذلك ما لم تَحِدْ عن الصراط المستقيم. ويجدر بنا في هذا الموضع أنْ نقف على بعض ما لاح لطائفةٍ من الـمُفسِّرين الـمُتقدِّمين والـمُتأخِّرين من معنى عن تلك العبارة القرآنية، وكيف تطوَّر مفهومها عندهم؛ إسهاماً منّا في جمع أظهر الدلالات المستنبطة، وسعياً إلى

---

[27] ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: جعل، ج11، ص110.

[28] الدامغاني، الحسين بن محمد. **إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل، بيروت: دار العلم للملايين، 1983م، مادة: جعل، ص106.

[29] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة: جعل، ص94.

كشف الخيط الناظم بينها، وتوليد معانٍ أُخرى؛ لتكوين تصوُّر أشمل عن "الوسط" المقصود في كلام الله تعالى. وبعد تتبُّع بعض ما قرَّره المُفسِّرون في هذه المسألة، تَبيَّن لنا ما يأتي:

- الأُمَّة الوسط أُمَّة الاعتدال في الدِّين والتدين:

أشار إلى هذا المعنى العديد من المُفسِّرين، مثل ابن جرير؛ إذ قال: "وأنا أرى أنَّ (الوسط) في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار. وأرى أنَّ الله تعالى إنَّما وصفهم بأنَّهم وسط لتوسطهم في الدِّين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها."[30]

إذن هي أُمَّة معتدلة قياساً إلى غيرها من الأُمم التي انحرفت عن سواء السبيل، وتجاوزت حدود التوسط في أمور الدِّين والدنيا. وبالموازنة مع النماذج البشرية المذكورة في القرآن الكريم، يبرز نموذج الأُمَّة الوسط في الاعتقاد والعبادة والسلوك. ولهذا، فإنَّ الوسطية تدل -بدايةً- على الاعتدال بوصفه خصيصةً، ومنهجاً، ومقصداً، ومقياساً يميز المنظومة الإسلامية في جوانبها المختلفة، ويضبط حركة الأُمَّة، فيجعلها مشدودة إلى الحق، ومسترشدة به في النهوض بأعباء التكليف ومقتضيات الاستخلاف.

- الأُمَّة الوسط صاحبة الرؤية الكلية:

من الإشارات النفيسة في هذا السياق ما ذكره البقاعي في تأويل الآية؛ إذ قال: "ولما أثبت لهم الوسط الذي من حله كان جديراً بأنْ لا يخفى عليه شيء من الجوانب، واستلزم ذلك كونه خياراً."[31] وذهب محمد رشيد رضا إلى المعنى نفسه، فقال: "ومَن كان متوسطاً

[30] الطبري، **جامع البيان في تفسير آي القرآن**، مرجع سابق، ج2، ص626.

[31] البقاعي، برهان الدين أبو الحسن. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1984م، ج2، ص211.

بين شيئين فإنَّه يرى أحدهما من جانب، وثانيهما من الجانب الآخر، وأمّا مَن كان في أحد الطرفين فلا يعرف حقيقة حال الطرف الآخر، ولا حال الوسط."[32]

إنَّ هذه المكانة التي اختصت بها الأُمَّة تمنحها القدرة على النظرة الكونية والحضارية الشاملة المحيطة بحقائق الأمور، وحقيقة الخالق التي كشف جانباً منها الوحي الإلهي، وحقيقة الخَلْق، وحقيقة الإنسان، وحقيقة التكليف. وتستند تلك النظرة إلى الهدى الرباني، وتظهر فائدتها في تقوية حصانة الأُمَّة الوسط -إنْ هي أدركتها ووعتها- من التيه في ساحة الوجود، ووضع إنجازها الحضاري موضع الرشد، ومصداق ذلك هو التاريخ الإنساني؛ فالأُمم السابقة تخبَّطت في الضلال المبين حين فقدت تلك الرؤية، ووقعت في الظلم والفساد، فحق عليها القول، وتحقَّقت فيها سُنَّة الله؛ لذا كان من مقتضيات "الوسط" اكتساب العبرة من مآلات القرون الأُولى من جهة، والنظر في تجارب المجتمعات المعاصرة من جهة أُخرى، لتنظر الأُمَّة إلى كَسْبِ هذه وتلك بمنظار الاتعاظ؛ بُغْية استنباط سنن النهوض والسقوط التي تتيح امتلاك الرؤية الواضحة الهادية إلى السمو الإيماني والترقي المادي المشدود إلى قيم الدِّين الحق.

- الأُمَّة الوسط ذات شريعة واضحة ميسرة:

قال الطاهر بن عاشور في هذا السياق: "والآية ثناء على المسلمين بأنَّ الله قد ادخر لهم الفضل وجعلهم وسطاً بما هيَّأ لهم من أسبابه في بيان الشريعة بياناً جعل أذهان أتباعها سالمة من أنْ تروج عليهم الضلالات التي راجت على الأمم."[33]

وثمَّة تلازم بين وسطية الشريعة ووسطية الأُمَّة، يظهر في طبيعة هذه الشِّرعة الربانية الخاتمة، التي تنطوي على توجيهات عدَّة، والتي يراد بها ابتداءً تزكية النفوس، وبناء الأُمَّة المستقيمة على المنهاج القويم البعيد عن أيِّ غلو أو تنطُّع في الفكر والممارسة. وهذا المقصد لن يتحقَّق أبداً إلا بتفعيل هذه الشريعة القائمة على الاتزان والتوسط في واقع الحياة. وفي تأكيد هذا المعنى يقول الشاطبي: "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على

[32] رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، مصر: مطبعة المنار، 1350هـ، ج2، ص4.

[33] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، مرجع سابق ج2، ص18.

الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع الـمُكلَّفين غاية الاعتدال، كتكاليف الصلاة والصيام والحج والزكاة... فإنْ كان التشريع لأجل انحراف الـمُكلَّف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادّاً إلى الوسط الأعدل، لكنْ على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه، فإذا نظرت في كلية شرعية فتأمَّلها تجدها حاملة على التوسط، فإنْ رأيت ميلاً إلى جهةِ طرفٍ من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر، فطرف التشديد يؤتى به في مقابلة مَن غلب عليه الانحلال في الدِّين، وطرف التخويف يؤتى به في مقابلة مَن غلب عليه الحرج والتشديد. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك، رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يُرجَع إليه، والمعقل الذي يُلجَأ إليه."[34]

- الأُمَّة الوسط منهاج حياة قويم:

يرى سيد قطب -في معرض تحليله الآية نفسها- أنَّ هذه الأُمَّة وسط؛ أي قائمة على منهاج قويم في التصوُّر والاعتقاد، فلا تغلو في التجرُّد الروحي، ولا في الارتكاس المادي، وإنَّما تتبع الفطرة الـمُمثَّلة في روح مُتلبِّسة بجسد، أو جسد تتلبَّس به روح، مانحةً هذا الكيان ثنائي الطاقات حقه المتكامل من كل زاد. وهي أيضاً وسط في التفكير والشعور، فلا تجمد على ما عملت، أو تغلق منافذ التجربة، ولا تتبع كل ناعق، وإنَّما تستمسك بما لديها من تصوُّرات ومناهج وأصول. وكذا هي وسط في التنظيم والتنسيق، فلا تدع الحياة كلها للمشاعر والضمائر، أو للتشريع والتأديب، وإنَّما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع. وهي أيضاً وسط في الارتباطات والعلاقات، فلا تلغي شخصية الفرد، ولا تصهرها في كيان الجماعة، ولا تطلقه فرداً جشعاً لا هَمَّ له إلا ذاته.[35] وهي وسطية شاملة تستوعب كل مناحي الحياة الإنسانية، ولا تذر جزئية منها إلا أخضعتها للقسطاس المستقيم، في وفاق تام بين نواميس الكون وسننه الموضوعة في البدء

[34] الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات**، تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت، ج2، ص124.
[35] قطب، سيد. **في ظلال القرآن**، بيروت: الدار العربية، مج1، ج2، ص14-15.

على الميزان. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ (الرحمن: 7-9).

يتبيَّن ممّا سبق أنَّ المسار التاريخي في بحث مفهوم "الأُمَّة الوسط" لم يتوقف فقط عند ما انتهى إليه الـمُفسِّرون الـمُتقدِّمون من دلالات ارتبطت أساساً بالمدلول اللغوي الذي قوامه العدل والخيار، وإنَّما استمر في توليد معانٍ أُخرى، ولا سيما مع المحدثين الذين توسَّعوا في إبراز أبعاد كثيرة لوسطية الأُمَّة في العقيدة، والشريعة، والتدين، والتفكير، والشعور، والتنظيم، والزمان، والمكان، والحاجات، والارتباطات، والمنهج، وغير ذلك كثير.

غير أنَّ ما يجب ملاحظته، للوصول إلى فهم أعمق لمضمون "الأُمَّة الوسط"، هو النظر في لحظة ميلاد تلك الأُمَّة، ودراسة صيرورتها التاريخية؛ لرصد التطبيقات العملية للوسطية في صورها المثلى مع القرون الأُولى الموصوفة بالخيرية التي تُمثِّل النموذج ومحل الاقتداء، فذلك يُفضي إلى استفادة عناصر الشهود الحضاري الذي أنجزته الأُمَّة في سيرها الأول المُسدَّد بالوحي.

إنَّ ابتعاد أُمَّتنا عن مسلك الوسط جعلها في وضعية اختلالٍ للميزان، وهي ابتداءً مُكلَّفة بإقامة الوزن بالقسط في كل أمر وشأن، والذي يمنعها الآن أنْ تتحقَّق به من جديد، تعطيلُها العناصر التي شكَّلت الأُمَّة الوسط بادئ الأمر؛ إنَّها بصائر القرآن والنور الذي أنزله الله تعالى هدى للعالمين، ومن الخسران المبين التماس "الوسط" من غير ذلك الهدى المعصوم الخالد. هذا طرف من الدلالات الجمَّة الـمُستكِنَّة في لفظ "وسطاً"، وسنمضي الآن في استكشاف الوصف الذي يليه.

3. وصف "الأُمَّة الواحدة":

ورد هذا الوصف بصورة صريحة في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ (البقرة: 213)، وقوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ۝٩٢﴾ (الأنبياء: 92)، وقوله جَلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢﴾ (المؤمنون: 52). وتوجد آياتٌ أُخَرُ عديدة أشارت إلى مضمون وحدة الأُمَّة،

بدعوتها إلى الاعتصام بحبل الله، والائتلاف، والأخوة، والموالاة بين المؤمنين، وتحذيرها من الفُرقة والاختلاف.

إذن، فالأُمَّة هي الجماعة الموحدة على مقصد واحد. وقد فسَّر أكثر المُفسِّرين لفظ "الأُمَّة" الوارد في الآيتين الأخيرتين الآنف ذكرهما، بالدِّين والملَّة والشريعة؛ نظراً إلى الاجتماع على مقصد واحد، وتأكيد توحيد الوجهة نحو الله الواحد الأحد. ومتى تحقَّق الاجتماع والاتحاد على هذا القصد، حصل الائتلاف بين المؤمنين الموحدين المخلصين الإسلامَ لرب العالمين. وما إنْ تتفرَّق السُّبُل، وتتعدَّد الملل، ويحيد الناس عن الأصل الجامع، حتى تكثر الفِرق، وتتقطَّع الأُمَّة قطعاً متناثرة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ٩٣﴾ (الأنبياء: 93).

إنَّ الدِّين الحق هو العنصر الرئيس لوحدة الأُمَّة المسلمة، والأساس الذي يقوم عليه وجودها. وقد يبدو ظاهرياً أنَّ أفراد إحدى الأُمم هم على قلب رجل واحد، وأنَّهم متماسكون، ولكنَّهم حقيقةً متنافرون فيما بينهم، وبخاصة إذا اجتمعوا على ضلال، وانعدم الأصل الحقيقي الجامع بين القلوب، الذي يربط بينها بإحكام. قال تعالى: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾ (الحشر: 14).

لقد كشف العليم بذات الصدور حقيقةً، ربَّما كانت غائبة قبل هذا الإخبار عن النبي ﷺ وعن المؤمنين، مفادها أنَّ أعداءهم في حالة من التنافر الخفي، مع أنَّ الظاهر يشي بوحدة الصف. والمعنى المستفاد من ذلك هو أنَّ القوم الذين قصدهم الله تعالى غير مجتمعين على شيء ذي شأن يوقعهم في موقع المهابة منهم؛ إنَّهم متضادون مختلفون اختلافاً كبيراً، وهذا مكمن ضعفهم. فالاجتماع على المصالح الدنيوية هو اجتماع واهن، شبيه بالوهن في بيت العنكبوت، بحيث يتبدَّد بذهاب تلك المنافع الوهمية. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ (الرعد:17).

أ. حقيقة الأُمَّة الواحدة، وسُنَّة الاختلاف الجارية في الناس:

الأُمَّة الواحدة هي أُمَّة غير منقسمة؛ إذ إنَّها كيان واحد فقط، متلاحم الأجزاء، وهذا هو حال الأُمَّة المسلمة الحقة، ولا يُتصوَّر لها حال إلا تلك. وثمَّة ارتباط ضروري بين الإسلام والوحدة؛ فهو العلَّة الأُولى لحصولها، وهي تدور معها وجوداً وعدماً. وقد ذكر القرآن المجيد أنَّ الأُمَّة المسلمة الأُولى كانت -أول مرَّة- جماعة واحدة مؤتلفة على الحق، ومجتمعة على الإيمان. قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾ (البقرة: 213). وهذا إخبار بحقيقة تاريخية قديمة، مفادها أنَّ الناس في البدء كانوا على دِين واحد يُوحِّدهم، وأنَّ الله تعالى بعث الأنبياء حين وقع الاختلاف في الدِّين بسبب البغي بينهم؛ فالتفكُّك نتيجة ضرورية للتفرُّق في الدِّين والانحراف عن الحق الذي وظيفته الأساسية الجمع والتوحيد. ولهذا، فإنَّ بقاء الأُمَّة الواحدة مشروط ببقائها على الحق.

لقد أشار القرآن الكريم إلى أنَّ من السنن الاجتماعية السارية في الخلق، الاختلاف والتعدُّد، وورد آنفاً في الآيات المذكورة في هذا الباب أنَّ المشيئة الإلهية اقتضت وجود الاختلاف بين الناس. قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ (هود:118). فالاختلاف بين البشر سُنَّة ماضية، وقد أثبت التاريخ الإنساني أنَّه حافل بالخلاف والتفرُّق المفضي إلى التدافع، وثمَّة حكمة إلهية مُعلَنة في ذلك. قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (البقرة: 251).

وحتى داخل الأُمَّة المسلمة الواحدة؛ فإنَّ الاختلاف واقع، ولا ضير في ذلك إذا لم يؤدِّ إلى ذهاب الريح والقوة والألفة؛ لأنَّ التنوع هو خصيصة بشرية، ولا تعني وحدة الأُمَّة إلغاءها أو طمسها، فذلك مُتعذَّر عقلاً وواقعاً، ومناقض لطبيعة الأشياء. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ (الحجرات: 13). وهذا إخبار رباني لعموم الناس، وللأُمَّة المسلمة، ولِمَن

سيأتي بعدها، أنَّ الأصل في البشر هو التنوع قصد التعارف ثمَّ التآلف، لا التفاخر ثمَّ التطاحن، وأنَّ التقوى هي الأساس الذي يُعلي شأن بعض الناس على آخرين عند الله تعالى.

فالذي يُوحِّد الأُمَّة، بالرغم من تعدُّد شعوبها وقبائلها، هو إسلامها لربها بصدق، وعلى قدر اعتصامها بحبل الله تعالى تكون وحدتها؛ فإذا اشتدَّ اشتدَّت وتقوَّت، وإذا ضعُف تفكَّكت وتفرَّقت شيعاً وأحزاباً. واليوم أضحى الغلو في تقديس القومية والإثنية والعرقية، وتقديمها على الانتماء إلى الدين، معول هدم لمفهوم "الأُمَّة الواحدة"، ومدخلاً لتفتيتها من الداخل، ولا سبيل لإضعاف هذا المنزع القومي الشعوبي المتنطِّع إلا بإحياء مفهوم "الأُمَّة" كما يعرضه الذكر الحكيم، الذي يصون التنوع البشري للمسلمين، ويُؤلِّف بينهم، ويحضن أعراقهم المتعددة على أساس الأخوة الإيمانية والإنسانية الرحبة، التي لا مكان فيها للتمييز والنيل من كرامة الإنسان.

4. وصف "خير أُمَّة" وخصيصة الإخراج للناس والشهادة عليهم:

الأصل في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: 110)؛ إذ تُقرِّر الآية الكريمة أنَّ الأُمَّة المسلمة كانت خير أُمَّة، وأنَّها ستستمر على هذه الخيرية، وتمتد في الزمان إذا صدقت في إيمانها، وسعت إلى إشاعة الفضيلة وإنكار الرذيلة. ويدل معنى "خير أُمَّة" على التفضيل؛ فهي الفاضلة في صلاحها، والفاضلة من كل شيء، والفاضلة بالقياس إلى غيرها؛ إنَّها أرقى الأُمم وأحسنها، إذ نجدها تحمل الخير، ثمَّ تأتي به للآخرين، وما ذلك إلا لأنَّها مستسلمة لرب العرش العظيم، الذي أخرجها ابتداءً للناس لا لذاتها.

وأصل الخروج هو النفاذ عن الشيء،[36] ويُستفاد منه معانٍ أُخَرُ، مثل الظهور والبيان والحضور بعد الكمون. وخروج الأُمَّة يعني تجاوز حدود الحيِّز المكاني الذي نشأت فيه وتطوَّرت، ليمتد النور -الذي أصبحت هي بؤرته- إلى الآفاق المظلمة، فيبلغها قبسه الساطع. لقد أخرج الله تعالى هذه الأُمَّة إلى عالَم الشهود بعد ما كانت قبلاً في عالَم

[36] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج2، ص175.

الكمون، وأشبهَ بالأرض الميتة الجرداء، فلمّا أصابها الغيث بثَّ فيها الحياة الحقيقية، فاهتزَّت وربت، وصارت خلقاً آخرَ مُهيَّأً لأمور عظام، أَظهَرُها الاندفاع لأجل الشهادة على الناس، كما أخبر الحق بذلك في موضعين من القرآن الكريم؛ الأول في قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143)، والثاني في قوله سبحانه: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ۝٧٨﴾ (الحج: 78). ولفظ "الشهادة" مداره يقوم على المشاهدة والمعاينة والحضور. والشاهد هو العالِم الذي يُبيِّن ما عَلِمَهُ، والشهيد: الحاضر. وأصل الشهادة: الإخبار بما شاهده الحاضر، وهي قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بصر.[37] قال ابن فارس في ذلك: "الشين والهاء والدال أصل يدل على حضور، وعلم، وإعلام، لا يخرج شيء من فروعه عن ذلك."[38] أمّا مفهومه في القرآن الكريم فيقوم على دلالات متلازمة فيما بينها، هي:

أ. الشهادة بمعنى الإقرار بتفرُّد الله سبحانه بالألوهية والربوبية. قال جَلَّ شأنه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝١٨﴾ (آل عمران: 18).

ب. الشهادة بمعنى كونها إخباراً بالقطع عن أمر وقع العلم به، وبيان حقٍّ يتوقف عليه ذلك الإخبار. فكتمان الشهادة هنا ضرب من الظلم، يُفضي إلى ضياع الحقوق. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:140).

ت. الشهادة بمعنى الحضور. قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ (البقرة: 133).

ث. الشهادة علَّة جَعْلِ هذه الأُمَّة وسطاً. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: 143).

---

[37] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مرجع سابق، مادة: شهد، ص267.

[38] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مرجع سابق، ج3، ص221.

ج. الشهادة بمعنى بذل المهجة في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونصرة دينه، وهي مقام رفيع يتبوأه الشهداء الصادقون. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ (النساء: 69).

ح. الشهادة باعتبارها تكليفاً خاصّاً بأُمَّة محمد ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (الحج:78).

إنَّ الشهادة بهذه المعاني المذكورة لا تذر الأُمَّة تتوارى، وإنَّما تفرض عليها الشهود الفاعل في واقع الحياة، وتقتضي منها السعي للترقي في مراتب الإيمان الصادق، ومقامات التعبُّد الخالص؛ تحصيناً لذاتها من علل الوهن والارتكاس والسقوط، وتقويةً لامتدادها في الأرجاء؛ بُغْية ترشيد سير الإنسانية، وتحريرها من أغلال الأوهام المضلة، بما تحمله من هدايات الوحي وموازينه.

رابعاً: الشهادة على الناس وظيفة الأُمَّة الحضارية

الشهادة من حيث هي تكليف رباني منوط بالأُمَّة تحمل في جوهرها حقيقتين متكاملتين؛ الأُولى غيبية، والثانية دنيوية.

1. **الحقيقة الغيبية**: اختلف أهل التفسير حول المكان الذي تتحقَّق فيه هذه الشهادة التي تضمَّنتها الآية الآنف ذكرها؛ أهو في الدنيا أم في الآخرة؟ جاء في البحر المحيط: "وفي شهادتهم أقوال، أحدها وهو ما عليه الأكثر من أنَّها في الآخرة، وهي شهادة هذه الأُمَّة للأنبياء على أُممهم الذين كذبوهم."[39] ومال الفخر الرازي إلى القول إنَّها في الدنيا من دون استبعاد الرأي الثاني، مُستشهِداً بالآتي: "الشهادة، والمشاهدة، والشهود، هو الرؤية، يقال: شاهدت كذا إذا رأيته وأبصرته، ولمّا كان بين الإبصار بالعين وبين المعرفة بالقلب مناسبة شديدة، لا جرم قد تسمى المعرفة التي في القلب: مشاهدةً

[39] الأندلسي، أبو حيان. **البحر المحيط**، تحقيق: صدقي جميل، بيروت: دار الفكر، 1420هـ، ج2، ص12.

وشهوداً، والعارف بالشيء: شاهداً ومشاهداً.... إنَّ كل مَن عرف حال شيء، وكشف عنه كان شاهداً عليه، والله تعالى وصف الأُمَّة بالشهادة، وجعلهم عدولاً في الدنيا لأجل أنْ يكونوا شهداء، وذلك يقتضي أنْ يكونوا شهداء في الدنيا."[40] ولكنَّ هذا لا يعني أنَّها ستنتظر إلى اليوم الآخر حتى تقوم بهذه المهمة؛ فثمَّة ضرب من الشهادة على الناس موضعها الدنيا محل التكليف.

2. **الحقيقة الدنيوية**: ترتبط هذه الحقيقة بعالَم الشهادة، وتظهر في كون هذه الأُمَّة شاهدة على باقي الأُمم؛ لسموها واعتدالها وتوسطها في الأمور كلها. وهذه الخصيصة هي علَّة هذه الشهادة، ومضمونها أنْ تشهد على الناس جميعاً، فتقيم بينهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم، وتبدي فيهم رأيها، فيكون هو الرأي المعتمد، وتزن قيمهم وتصوُّراتهم، فتفصل في أمرها، وتقول بما تمتلك من منهج صحيح: هذا حق وهذا باطل، وهي شهيدة على الناس، وفي مقام الحكم العدل بينهم. وهذه الشهادة إنَّما هي ضرب من التقويم والتصويب لمسار البشرية جيلاً بعد جيل.

وبينما هي تشهد على الناس هكذا، فإنَّ الرسول ﷺ شاهد عليها. "فكما تشهد هذه الأُمَّة الوسط على الناس بسيرتها وارتقائها الجسدي والروحي بأنَّهم قد ضلوا عن القصد، يشهد لها الرسول ﷺ بأنَّها استقامت على صراط الهداية المستقيم."[41] ومن مكملات هذه الشهادة تبليغ دعوة الإسلام إلى باقي الأُمم؛ ليقوم ذلك مقام دعوة الرسول إياهم، حتى تتم الشهادة للمؤمنين منهم على المعرضين. ولن تتحقَّق هذه الشهادة إلا بتبيين الحق للعالَم، وإرشاد شعوبه إلى الطريق المؤدي إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وتوجيهها إلى المنهاج القويم الذي رسم القرآن معالمه، والذي ارتضاه الله لخلقه، ولكنَّ أكثر الناس في غفلة عن هذه الحقيقة، والسبيل إلى بيانها استئناف الشهادة التي انطلقت مع التجربة النبوية، وتلك مهمة الأُمَّة الوارثة للرسالة الخاتمة بأنْ تكمل المسيرة التي توقفت منذ قرون حين دخلت الأُمَّة طور الانحسار.

---

40 الرازي. فخر الدين. **تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب**، بيروت: دار الفكر، 1981م، ج4، ص112.

41 رضا، **تفسير المنار**، مرجع سابق، ج2، ص5.

إنَّ شهود الأُمَّة المسلمة وشهادتها يعني اليوم تجديد ذاتها استناداً إلى قيم الوحي، وموقعها التاريخي، وريادتها العالمية، بما تملكه من قيادة مرجعية وفكرية وتشريعية وأخلاقية، تتحقَّق فيها أبعاد الخلافة الربانية على الأرض. وهذه الشهادة التي تضع الأُمَّة من جهة الاقتضاء في صدارة الأُمم، تتلخص أبعادها الحضارية فيما يأتي:

- إيصال نور الإسلام وقبس رسالته الربانية إلى مختلف أنحاء العالَم بجميع الوسائل المتوافرة.

- الوقوف إلى جانب الحق والعدل في القضايا الكونية والعالمية، وتقديم النموذج الإسلامي عن طريق الممارسات الرشيدة العادلة.

- نصرة المُستضعَفين في الأرض، ومقاومة مظاهر الطغيان والاستكبار في العالم.[42]

وعلى أساس هذا التصوُّر الذي تقوم عليه وظيفة الشهادة على الناس، يُمكِن تقسيم الشهادة إلى ثلاثة أقسام:

أ. **شهادة العلم**: مضى القول بأنَّ الشهادة هي إخبار عن أمر وقع العلم به، وأنَّ الشاهد هو العالِم الذي يُبيِّن ما عَلِمَهُ. هذا في أمور توثيق حقوق الأفراد، والعلم مطلوب من باب أَولى في الشهادة الكلية على الناس، ولا يُتصوَّر أداؤها كما يجب من دون شرط وجوده. وقد ارتبط مفهوم "العلم" أول مرَّة لدى المسلمين بنزول الوحي الذي أمر بالقراءة؛ ذلك أنَّ العرب أُمَّة أُمِّية، لم يكن لها كتاب قبل القرآن الكريم الذي كان منطلقها إلى المعرفة، ووسيلتها إلى القراءة التي نزلت فيها أول كلمة من كتاب الله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق: 1). لقد حدَّدت هذه الآية وما تلاها من آياتٍ عدداً من الأمور الجوهرية؛ ففيها أمر بالقراءة، وبيان علاقة العلم بالقلم، وبيان مصدر العلم (الله ﷻ)، وأنَّ الأمر بالقراءة مُوجَّه إلى الإنسان الذي خلقه الله من علق، وأنَّ من خصائصه العجز؛ لذا فهو مُفتقِر في العلم إلى الله تعالى.

---

[42] الكفيشي، عامر. **مقومات النهوض الإسلامي بين الأصالة والتجديد**، بيروت: دار الهادي، 2006م، ص351-352.

والقراءة المطلوبة هي القراءة باسمه سبحانه وتعالى، والقراءة المأمور بها هي مفهوم يتسع ليشمل المسطور في الكتاب، والموجود في الكون؛ فآيات القرآن الكريم وآيات الآفاق والأنفس تقرأ أيضاً، وتتلازم القراءتان وتنصهران حتى ينتج منهما علوم ومعارف وخبرات وتجارب، يُؤسَّس عليها العمران، وتنبثق منها حضارة الإيمان، ويتحقَّق بها الشهود الحضاري للأُمَّة على بصيرة وهدى وعلم.[43]

وقد سبقت الإشارة إلى أنَّ العرب وُصِفوا في القرآن الكريم بالأُمِّيين، كما وصف الرسول صلى الله عليه أُمَّته الشاهدة بالأُمِّية حينما قال: "إنّا أُمَّة أُمِّية لا نكتب، ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا. يعني مرَّة تسعة وعشرين، ومرَّة ثلاثين."[44] وقد يُفهَم من هذا الوصف معنى يُفضي إلى الإحجام عن طلب العلم، والتقليل من شأن العقل، وكأنَّ الأُمِّية هي قدر هذه الأُمَّة يجب التسليم به؛ ما يتنافى مع مقتضى الشهادة الوارد ذكرها آنفاً. ولهذا اجتهد بعض أهل العلم[45] في بيان المدلول الصحيح لتلك النصوص في ضوء سياقها وملابساتها، وردِّها إلى الأصول الكلية، وقواعد الاستنباط، وضوابط اللغة، ومقاصد الشرع، وغير ذلك ممّا يطول ذكره هنا. وقد تحصَّل من كلامهم أنَّه لا يُمكِن أنْ تكون الأُمِّية صفة لازمة للأُمَّة، وإنَّما هي مرحلة تاريخية مؤقتة، ولا سيما بعد نزول القرآن الكريم الذي احتفى بالعقل والفكر والعلم، ودعا إلى تحصيله والإمامة فيه.

وفي ما يخصُّ إشارة الشاطبي إلى أُمِّية الشريعة بقوله: "هذه الشريعة المباركة أُمِّية؛ لأنَّ أهلها كذلك، فهو أجرى على اعتبار المصالح..."[46] فقد قصد من ذلك -كما ذكر شارح الموافقات- بيان أنَّه فهمها وتعرُّف أحكامها لا يتطلَّب التغلغل والتعمُّق في العلوم الكونية والرياضية؛ لأنَّها قائمة على اليسر والوضوح والبساطة البعيدة عن التعقيد

---

[43] العلواني، طه جابر. **إصلاح الفكر الإسلامي**، بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2001م، ص123.

[44] البخاري، محمد بن إسماعيل. **الجامع الصحيح**، دمشق: دار ابن كثير، 2002م، كتاب: الصيام، باب: قول النبي ﷺ: "لا نكتب ولا نحسب"، حديث رقم1913، ص460.

[45] الغزالي، محمد، وحسنة، عمر عبيد. **كيف نتعامل مع القرآن؟**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنصورة: دار الوفاء، 1993م، ص197. انظر أيضاً:

- العلواني، طه جابر. **لسان القرآن ومستقبل الأُمَّة القطب**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2006م، ص45.

[46] الشاطبي، **الموافقات**، مرجع سابق، ج2، ص53.

والإشكالات الصعبة. ولو كان الأمر يعني غير ذلك لاكتفى المسلمون بأُمِّيتهم وأُمِّية الشريعة، وما انطلقوا نحو البحث العلمي والتأليف والتصنيف في مختلف العلوم، كما يشهد على ذلك تراثهم العلمي المتنوع. ويتعيَّن على الأُمَّة اليوم أنْ تستعيد شهادتها على الناس؛ بتفكيك أُسس أزمتها الفكرية، والسعي إلى امتلاك ناصية العلوم، وإنتاج المعرفة، وإطلاق العنان للعقل، وإعمال الاجتهاد والتجديد في أبعاده وحقوله المختلفة.

ب. شهادة التبليغ: قال تعالى في هذا الشأن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ١٥٩﴾ (البقرة: 159). فهذه الآية تُبيِّن أنَّ التبليغ أو البلاغ في التصوُّر القرآني هو أحد مبادئ الدِّين الأساسية. ومن المعلوم ما لشهادة التبليغ من أهمية وخطر عظيمين؛ ذلك أنَّ ما ورد من التهديد والوعيد وتشديد العقوبة في كتمان الحق وعدم تبليغه، لم يرد له نظير، حتى في تارك الصلاة؛ ما يدل على عِظم شأن التبليغ. فما شرعه الله من قانون المجازاة ومكافأة الناس بأعمالهم، ومحاسبتهم عليها، إنَّما أساسه وعماده هذا النوع من الشهادة. وبيان ذلك أنَّ الله ذو حكمة ورحمة، فلا يليق بمَن هذه صفاته أنْ يأخذ الناس بذنوبهم، ويعاقبهم على انحرافهم، وهم لا يعرفون السبيل التي تُرشِدهم إلى الخير، وتُحذِّرهم من المعاصي والآثام؛ لذا بدأ الله الخَلق بنبي كريم، ثمَّ أرسل رسلاً مُبشِّرين ومُنذِرين، فتتابعوا على تعاقُب الأيام والأجيال؛ ليُعلِّموا الجنس البشري المنهاج القويم المرضي عند الله في هذه الحياة، فتنقطع حجة الناس على الله، ولا يبقى لأحدهم عذر بعد التبليغ. قال تعالى: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا١٦٥﴾ (النساء:165).

ولهذا شعر الأنبياء جميعاً بثقل هذه الأمانة، فسعوا سعيهم إلى أداء الشهادة وإبلاغ رسالاتهم. ثمَّ إنَّ الذين تلقّوا هذه الدعوة عن طريق رسل الله، وعرفوا سبيل الحق، جعل الله منهم أُمَّة ورثت ذلك التكليف، ونابت منابهم في تحمُّل هذه التبعة الواجبة المحتومة على الذين يدينون بالإسلام، ويَعُدّون أنفسهم من أفراد هذه الأُمَّة.[47]

[47] المودودي، أبو الأعلى. **شهادة الحق**، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982م، ص10.

والحقيقة أنَّ التجربة الإسلامية الأُولى التي أخذت على عاتقها أمر تبيان رسالة الدِّين للعالمين، أتاحت للأُمم والشعوب -حتى المضطهدة منها- أنْ تنال حظها من هذا الخير والعلم والتهذيب، وأنْ تُسهِم -إلى جانب العرب- في بناء العالم الجديد، حتى إنَّ كثيراً من أفرادها -لـمّا وصلهم البيان الإسلامي- فاقوا العرب في بعض الفضائل، وكان منهم أئمة وفقهاء وعلماء في سائر العلوم. قال ابن خلدون في فصل سمّاه "في أنَّ حمَلة العلم في الإسلام أكثرهم من العجم" ما يأتي: "من الغريب الواقع أنَّ حمَلة العلم في الملَّة الإسلامية أكثرهم العجم، وليس في العرب حملة علم، لا في العلوم الشرعية، ولا في العلوم العقلية، إلا في القليل النادر، وإنْ كان منهم العربي في نسبته، فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته، مع أنَّ الملَّة عربية، وصاحب شريعتها عربي."[48]

وهذا الواقع ما كان له أنْ يتحقَّق من دون نهوض المسلمين الأوائل بواجبهم في البلاغ المبين، وإظهار حقائق الدِّين للأُمم الأخرى؛ ما جعلها تشارك في البناء الحضاري، وتنخرط في مشروعه الكوني. أمّا الأُمَّة اليوم فلا تملك من الإمكانات المادية ولا النفوذ العالمي ما يُمكِّنها من فتح مجالات حيوية خارج حدودها، والشيء الوحيد الذي قد يلفت انتباه العالَم إليها هو الدعوة والمضامين الحضارية الفريدة التي تحملها؛ فإهمالها الدعوة شوَّه وجهها العالمي، وحرمها من الشعور وحدها بالتفرُّد الذي كان قاب قوسين أو أدنى.

ت. شهادة التطبيق: يُقصَد بذلك تمثُّل كل الأصول، والمبادئ، وشعب الإيمان، والفضائل الأخلاقية التي تدعو هذه الأُمَّة الناس إليها؛ ذلك أنَّ الذي يُؤثِّر في النفوس، ويُنشِئ الاقتناع في الأذهان، هو مشاهدة هذه التعاليم والدعوات والأفكار التي تصدح الحناجر بذكرها، مُتجلِّيةً في الممارسة العملية. فالمدعو الذي لا يجد أثر مضمون الدعوة في تصرفات الداعية يفقد الشعور بصدق مَن يدعوه، وكذا مصداقية الدعوة نفسها، وفي هذا يقول ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (البقرة: 44)، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ (الصف: 2-3).

[48] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المُقدِّمة**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت، ص543.

ويندرج تحت ذلك كل مخالفة بين القول والعمل؛ لأنَّ الذي يستمرئ هذا الأمر لا يستحق الشهادة على الناس. والأُمَّة المسلمة اختُصَت بالتطبيق لتكون بعملها وسلوكها قدوة يحتذى بها بين الأُمم والشعوب المختلفة؛ فالمبادئ الإيمانية ماثلة أمام أنظارها، والمعاني تتجسَّد في التصرفات والأفعال. وهذه هي شهادة العمل وسماتها ومظاهرها، ولا يُمكِن أداء هذه الشهادة وقضاء حقها إلا باتخاذ الأُمَّة نفسها برهاناً ناطقاً على مصداقيتها، بأنْ تشهد أعمال أكثر أفرادها على صدق الدعوة، وصلاحية القيم التي تدعو إليها، والتي تُطبِّقها في جميع مناحي الحياة؛ في الروابط الأسرية، وفي المتاجر والمصانع والمؤسسات التربوية والعلمية، وفي سياسة الحكم، وسائر أجهزة الدولة والمجتمع.[49]

خاتمة:

انتهينا في هذا البحث إلى أنَّ الله تعالى قد شرَّف الأُمَّة المسلمة الواحدة الوسط أنْ تكون عَلَماً على أتباع النبي ﷺ حتى يرث الله الأرض وما عليها، وهيَّأها لتتبوَّأ مهمة الاستخلاف والبناء الحضاري؛ لما تمتاز به من خصائص عدَّة، يُمكِن إجمالها فيما يأتي:

– التسليم لرب العالمين الواحد الأحد، والخضوع لمنهجه ودينه الحق.

– الوحدة من حيث الانتماء إلى دين الإسلام، بوصفه العنصر الجامع لمكوِّناتها المختلفة، وروافدها المتعددة.

– الخيرية؛ فهي خير أُمَّة أُخرِجت للناس. وهذه الخيرية مشروط تحقُّقها بالإسلام القائم على التوحيد الخالص في العقيدة والعبادة، والتشريع العادل المبني على اليسر والرحمة. ومن مقتضيات هذه الخيرية أيضاً أنَّها أُمَّة لا تموت ولا تتلاشى؛ إذ يُمكِن أنْ يصيبها الوهن، وقد أصابها حقّاً، غير أنَّه لا يمنع استمرارها؛ لأنَّ القرآن الكريم يُمثِّل روحها ومصدر عافيتها وترقيها؛ ولأنَّها تملك من عناصر الحياة ما يُمكِّنها من التجدُّد الذاتي، ويمنحها القدرة على النهوض من جديد.

[49] المودودي، **شهادة الحق**، مرجع سابق، ص13.

– التوازن والاعتدال قياساً إلى الأُمم الأُخرى التي انقسمت بوجه عام إلى مَنزعينِ، اتجه أولهما نحو المادية والدهرية، مُعلِياً من شأن اللذة والشهوة ومتاع الدنيا، وجاعلاً تحصيلها الغاية من الحياة. في حين سلك الثاني مسلك التنطُّع، والتديُّن المنحرف، والرهبانية المبتدعة. وبين هذا الطرف وذاك، وقفت أُمَّة الإسلام موقف الوسط؛ لأنَّ المولى خصَّها بشريعة تجمع في توجيهاتها بين مطالب الجسد وأشواق الروح، وبين مصالح الفرد ومصالح الجماعة، وبين العمل للدنيا والسعي للآخرة من دون إفراط أو تقصير.

– التكليف؛ فهي تحمل أمانة عظمى، ولها رسالة في الوجود، وعليها مسؤولية إزاء الناس. وقد أصبحت بهذا التكليف الإلهي أُمَّةً وسطاً، وارتبطت به وجوداً وعدماً. وثمَّة علاقة سببية بين الأمرين؛ فعلَّة هذه الوسطية هي النهوض بأعباء تلك المهمة الجسيمة، وأيُّ تعطيل لها هو خَرْق لأُسس الأُمَّة المسلمة الوسط، وسببٌ لضعفها وصيرورتها إلى الانحطاط.